مذكرات إبليس

إغواء فتاة[١]

قال إبليس: كنتُ أتمشى في بعض أحياء القاهرة، وقد نهكنى الفكر وأمضَّني إعمال الرأي وأنا مشتغل البال بمكيدةٍ جهنميةٍ أُوقع بها ساسة الأمم في طامة مشكلة وحرب زبون،[٢] فبينا أسير في طريقٍ عامرةٍ بالقصور آهلة بأصحاب الثراء والجاه القديم إذ حانت مني التفاتة إلى نافذةٍ في دار قوراء، لمحتُ فيها فتاةً عذراء مُفرَّغة في قالبٍ بديعٍ من الحُسن تنسجم على جسدها الغض غلالة بيضاء كأنها نُسِجَت من رغوة الماء وخيوط الضياء، تشف من بدنها عن بشرةٍ صافية بَضَّة، ونهدين قاعدين كأنما ينفذان من خلال ذلك الشف الرقيق، واتكأت على النافذة تنظر إلى الطريق وتتنسم الهواء.

تلك هي صاحبتي الصغيرة مريم وما كنتُ أجهلها ولا أنا غافل عنها، ولكنها كانت طفلة تمرح في حراسة ملائكة الطفولة فلا أجرؤ على الدنوِّ منها، وكانت زهرة في كمام الفضيلة فلا تمتد يدي إلى اقتطافها وللطفولة حرَم تحوم حوله الشياطين ولا تتخطاه.

---

[١] هو فصل مستقل من فصول يشرح فيها إبليس أساليب إغوائه للناس.

[٢] قد أفلح إبليس في تدبير هذه الحرب علي ما يظهر فإن الحرب العظمى قد اشتعلت بعد كتابة هذا الفصل بسنة وشهور!

فأما وهي اليوم كاعب نبض قلبها بدم الشهوة وجرت في عروقها حرارة الهوى، وتفرقت عنها ملائكة الطفولة فلا شيء يعصمها منِّي، وتفتحت زهرتها فامتزج عُرفها الطاهر بهواء هذه الدنيا، فلسوف يكون لي معها شأنٌ كالذي كان لي مع غيرها من بنات حواء، ثم أتركها وما بقي فيها إلا كالذي يبقى في الزهرة الذابلة من شذى أحرقه في مباخر الجحيم.

ورأيتُ أن أعرِّج عليها في طريقي فألهو بها، وأرفِّه عني ساعة بهذه الفكاهة اللطيفة فأريح ذهني من جد الخبائث الكبيرة والشرور المستطيرة، وأشغل نفسي بهذه الغواية الساذجة، وإن كانت لا تحتاج إلى أكثر من دعابة شيطان صغير من تلاميذي المبتدئين في صنعة الفساد.

وكانت مريم بنت رجل ذي مكانة وثراء، ظَلَلْتُ أضارب بعقله في المضاربات حتى خسر عقله وماله، ولم يبقَ له من الضياع والنشب إلا هذا القصر الذي يقيم فيه، فحجروا عليه وأقاموا له قيِّمًا يتولى تأجير جانب من القصر وينفق من أجرته في مؤنة العائلة وتربية الصغار، فعكف الرجل على بيته لا يريم عنه، وهجره أصدقاؤه، وتسلل حشمُه واحدًا بعد واحدٍ، إلا خصيًّا منحوسًا حفظ عهد سيده كما يقول، ويئس من غير هذا المرتزق كما يعلم الله! ولو علم الخبيث مرتزقًا أوسع جنابًا وأوطأ رحابًا لفر من بيت سيده فراره من المأسدة!

وكنتُ قد وكَّلتُ بمريم ولدي الأعور[٣] فصرفته في دعوة فتًى إنسي أستعين به أحيانًا على خلب قلوب العذارى، وصعدتُ إلى مريم فدخلتُ غرفتها وهي لا تراني وقد قامت تخطر إلى المرآة، وإني لأعلم أنني أَفْتِن المرأة بكل صورةٍ إلا صورتها فإنها خُلِقَت مفتونة بها، وأقودها إلى كل مكانٍ إلا مكان المرايا فإنها تنقاد إليه طيِّعة راغبة، وما أحسب حواء حين أبصرت صورة محياها في ماء الغدير إلا قد حسبت أن الله أجرى لها الماء لتتراءى فيه لا ليرتوى منه العطاش ويحيا به موات الأرض، وكذلك نشأ بناتها على هذا الرأي، والحمد لله!

بيْدَ أني إذا كنتُ لا أبث في نفس المرأة بذور الغرور بجمالها فقد أنميه وأمدها فيه، وأمهد منه سبيلًا إلى إذكاء الحسد والبغضاء والاستهتار بالعشق وسائر الأهواء، وأُخطِّئ

[٣] الأعور من ولد إبليس الخمسة هو الموكل بالخنا والفساد في الأرض كما جاء في الإحياء.

الذين خُيِّل إليهم أن افتتان المرأة بجمالها واضعها بمنجاةٍ من طمع مرضى القلوب ورافعها عن منال الراغبين، فتكبر في نظر نفسها وتُصغِر المتطلعين إليها، فإنما قولهم هذا بعض الظن وكل الخطأ. ومتى صد الدلال عاشقًا؟ بل أي عاشقٍ لا يتصباه الدلال ولا يضرم رغبته التمنع والمطال؟!

إن افتتان المرأة بجمالها لَيُبْعدُها عن طائفةٍ من الطامعين لا خبرة لها بأهواء المرأة، فأما الذين يعلمون إلى أين يثبت غرورها فربما أدناهم منها وأعانهم عليها. فهي تُخدع من جانب ذلك الغرور ويُلقِي بها العجب في وسط ميدان الشهوات، فإذا هي كالقائد الذي تجعله كِسوته المذهبة وأنواطه المتلألئة هدفًا للرماة وغرضًا للرائشين.

ولو علم الأباء أي حظٍّ لي في الجمال المفتون لما امتدحوا أنفة بناتهم، ولما خافوا عليهن من شيءٍ خوفهم من هذه الأنفة؛ لأنه سلاح ترفعه الفتاة في وجوه الأزواج فيفرون منها، وتضعه تحت أقدام الفساق فيظفرون بها، وإني ليُعجِزني من الملاحة الوديعة ما لا يُعجِزني من الدمامة الشنيعة، وأنا القائل على لسان بعض الإنس:

أحب اللواتي في صباهن غرة وفيهن عن أزواجهن طماح
مُسرات حبٍّ مظهرات عداوة تراهن كالمرضى وهن صحاح

وكذلك نُزيغ الشعراء، ونخدع الأمهات والآباء.

فلما نهضتْ مريم تخطر إلى المرآة، قلتُ لقد سنحت الفرصة وقُضِيَ الأمر.

«تبارك الله» ما هذا الجبين الساطع والوجه البارع والحُسن الرائع! على مثل هذا الجمال فلتتقطع قلوب الرجال حسرة، ومن مثل هذا الرواء فلتتحرق صدور النساء غيرة، ووالله ما هما إلا صورتان فازتا بمعاني الحُسن وسماته: هذا المحيا في عالم الشهادة، وذلك المثال في عالم الخيال …

فتبسمت الفتاة وترنَّح عطفاها وأنشأت تُجيل في المرآة نظرات كانت قبل اليوم تلحظها من سواها ولا تفقه معناها، فأخذت اليوم تتعلم كيف ترمي، وتنظر أي الرميات يُوجِع وأيها يُدمِي، وأي السهام يخطئ وأيها يُصمِي، وأرسلتْ من بين أجفانها تلك النظرات الأنثوية التي تشبه المغناطيس؛ لأنها تجذب إليها قلوبًا من الحديد الصلب، وإن كان ذلك الحديد ليكونن عليها في بعض الأحيان حدًّا كحد السيف ونصلًا كنصول الحراب.

ورأيتها عارية الشعر، عاطلة النحر، مجردة المعصم، فقلت: ما كان أجمل هذا الليل لو زانته النجوم الجوهرية، وما أنفس الحلي الذهبية على هذه الترائب البلورية! أوَ ما كان قرط الماس أجمل في هذه الأذن منه عالقًا في أذن جارتك السمراء كأنه شرارة طارت من فحمة؟

وما بال هذا النحر لا تكسوه لبة ربما فاضت على صدرٍ قاتمٍ فلاحت فيه كما يلوح وضح البَرَص في الأديم الأسود؟ وما لهذا المعصم لا يزينه سوار ربما التوى على ذراعٍ مهزولٍ فكأنه مسعَّر قد التف عليه ثعبان! وهل اسْتُخرِج النضار إلا ليلمع على هذه الصدور؟! أو التُقِط الجوهر إلا ليسطع في ضياء الجمال الفضاح؟!

وتلك رقية ما رقيت بها فتاة فقويت عليها، وما دسستُ في صدر أنثى خدعة هي أسرى فيه منها، بل لقد كنتُ أهجس بها في قلب المرأة فتؤثر لو أنها تصبح بغير جِيدٍ من أن يكون لها جِيدٌ لا تطوِّقه الحلي والعقود.

فما تلوتها على مريم حتى انكسر كبرياؤها وزال عنها ذلك البِشْر الذي كان يترقرق في أسارير وجهها، وكأنها تقول: أنَّى لي هذه النفائس وقد حرمني الله نعمتها وأباها عليَّ الله أن يُمتِّعني بها؟

قلتُ: أوَ لا يُغنِيكِ أبوكِ عن هذا التمني؟!

قالت: إن أبي لكالضيف في المنزل لو أنه يُكرَم إكرام الضيف، وهذا القيم قد بات يقتر عليه في النفقة ويقطر عليه الدرهم بعد الدرهم، فإذا ظفر بعلبة التبغ حسبها منه غنمًا كبيرًا ومنَّة عظمى.

قلت: فخطيبك؟! فأجهشت الفتاة بالبكاء وهي تقول: لقد كان لي خطيب يزورنا أحيانًا فيتودد إليَّ ويلاطفني فلما تضعضعت حالنا، وقعد بنا الدهر هجر الرخاء منزلنا وهجره في يومٍ واحدٍ. فما سمعنا عنه منذ ذلك اليوم إلا أنه عقد خطبته بالأمس على إحدى قريناتي في المدرسة، ولو أنها كانت أملح مني خلقًا أو أصبح صورة لحسدتها على ملاحتها وصباحتها، ولكني لستُ أحسدها إلا على أبٍ أكثر من أبي مالًا وأدنى إلى القبر قدمًا.

قلتُ: لا يُعدم هذا الجمالُ عاشقًا يتقرب إليه بحياته، ويُذل المال في سبيل مرضاته.

فانتفضت الفتاة ارتياعًا من كلمة العشق، وكان مبلغ علمها فيه أن العشق والفسق شيءٌ واحدٌ، وأن البنت التي تَعشق غير جديرة بأن تُعشَق، وكانت تسمع العجائز يقلن عن بنات اليوم إنهن فطح القلوب تتكشف نفوسهن لعيون الرجال وهي سرٌّ من أسرار

الجنس لا يجوز إفشاؤه، وخطة مدبرة يحرم إعلانها لغير بناته، ويأخذن على الفتيات الناشئات إطماعهن الرجال في جنس النساء، ثم يتذاكرن الأيام الخوالي أيام كُنَّ يتمنعن وهن الراغبات ويحرقن قلوب أزواجهن بالتيه والصدود والتجني والدلال وهن بهم أكلف وعليهم أحنى وأعطف، ثم يتوجعن لسوء حظ بنات اليوم ويقلن لَمن حضر منهن: لقد نعمنا بزماننا فاستقبِلن اليوم زمانكن المعكوس! كأنما يضعن من شأن الصبا بعد أن فارقهن ويأسفن على حظ الصبيات من الشباب لئلا يأسفن على ما فاتهن منه، أو كأنما يحسبن الفتيات ضرائر لهن في هذا العاشق المتقلب فينتقمن لأنفسهن ويبخسن ما يوليه أولئك الفتيات من تُحَفِه ولطائفه.

وشوَّه وجه العشق في عينيها ما كانت تقرأ وتسمع في المدرسة من وصف الفضائل وصفًا كوصف الأكمه لنجوم السماء، وتعريف العفة تعريفًا يناقض كل صلة بين الرجل والمرأة غير تلك الصلة التي يسجلها الشيخ المأذون في دفتره، ولَعَمْري إنها لفضائل هوائية لا تعيش إلا بمعزلٍ عن الرذائل، ولا تجالد الشهوات في ميدان واحد، وإنها لجنود تمتنع عن عُداتها في حصن بعيد فلا تلبث أن تقتحمه العُداة عليها مرة حتى تستأسر لها أو تتقلد سلاحها وتحارب به في صفها، وليست الثقة بهذه الفضائل إلا كثقة هاروت وماروت بنفسيهما في السماء، فلما هبطا إلى الأرض سَكِرا وفسقا وقتلا في لحظةٍ واحدة!

يضع حمقى الإنس فضائلهم هذه عثرات في طريقي فأتناولها وأجعلها معالم يهتدي بها الناهجون فيها، ولا شيء يهوِّن عليَّ إغواء الفتاة الشرقية غير عفة هي بصدور الكتب أجمل منها بصدر الفتاة.

ليس لإغواء الفتاة الشرقية عندي إلا طعمة واحدة، فأما فتاة الغرب فإني أنصب لها أحبولة بعد أحبولة حتى تقع في يدي، وتصبح فريسة لي.

فإذا انتقلت بالشرقية من الصيانة إلى العشق أبصرتْ نفسها قد انتقلت إلى حالٍ ينكرها أهلها وذووها ويستهجنها الناس من حولها، وعلمتْ أن ما هي فيه رجس لا يرضاه أحدٌ غيرها؛ فخلعت العذار وأرسلت نفسها في التيار، فذهبت إلى الغاية من التبذل والاستهتار.

فأما أختها الغربية فلا بأس بها من العشق ولا إنكار عليها فيه، فإذا أَحَبَّتْ لم ينتهِ منها أَرَبي، ولم أزل أتنقل بها في أدوارٍ شتَّى وأتدرج بها من السائغ إلى المحظور ومن الطيب إلى الخبيث حتى يُفضِي بها الأمر إلى الفساد.

وكذلك أستفيد من غلوِّ الشرقيين في فضائلهم ما لا أستفيده من تفريط سواهم، فكلما ضيَّقوا دائرة الفضيلة اتسعت دائرة الرذيلة، وكلما حصروا حدود الحسنات انفرجت حدود السيئات.

وآنستُ من مريم استعصاءً وتثاقلًا، فأخذتُ بيدها إلى نافذةٍ تطل على حديقة قصر في جوارهم، تسكنه أسرة لها فتاة من لداتها قد سبحت في الغواية سبحًا وتقلَّبتْ في المقابح ردحًا، وجرت في العشق على مذهب أولئك الذين يخجلون من أن تراهم اليوم مع عاشق الأمس، ويحسبون أن الدوام على عاشقٍ واحدٍ كالدوام على لباسٍ واحد، هذا يَنُمُّ عن فقرٍ إلى المال، وذاك يبين عن فقرٍ إلى الجمال.

وكانت يوم ذاك في هوى فتى هو ثالث عشاقها، فكان يختلف إليها في الحديقة وتعلم أمها من شأنها ما تعلم، ولكنها تبادلها غض النظر ولعلها لا تكره زيارة الفتى؛ لأن عين ابنة الثلاثين قد ترى كما ترى عين ابنة الخمس والعشر!

وكان مجلسهما في الحديقة عند سرحةٍ فرعاء يقضيان تحتها ساعة أو ساعات لا مقدار لها في تقويم العاشقين؛ لأن إله الحب وربات الزمن لا يتلاقون في مكان واحد، فإذا شَغَل الحب موضعًا فرَّ منه الزمن، وإذا خلا موضعٌ من الحب تمطى فيه الوقت وتطاولت الساعات.

وجلسا في تلك اللحظة وقد تعاقدا بالأيدي وتجاذبا بالنظر، فكأنهما يعالجان التنويم المغناطيسي، أو كأن كلًّا منهما قد جمع روحه في عينيه لتتعرف من وجه صاحبه روحًا لقيتها في عالم الذر، فيطول أمد النظرة لطول العهد، ثم تُحتِّم بقبلةٍ لا يدريان أهي راحة الذاكرة من هذا الإمعان والاستقصاء أم هي بين الروحين تصافح المعرفة واللقاء.

فلما رأتهما مريم على هذه الحال تضرمت في نفسها شعلة الصبا، وسرت في عروقها حميا الهوى، فقالت: ليت لي عاشقًا!

قلتُ: أوَ تعشقين؟!

قالت: ولِمَ لا؟! بل إني لعاشقة الساعة، وكأنني أجد نفسي بين يدي فتى أجلس منه مجلس هذه الفتاة من ذلك الفتى، وأننا نتلاحظ كما يتلاحظان، ونتعانق كما يتعانقان، ونقطف من زهر المنى في روض الهوى مثلما يقطفان.

قلتُ: فاذهبي إلى عين شمس … فهنالك تجدين عيانًا ما تتوهمين خيالًا، واستقبلي عصارى اليوم في وادي الضياء والغرام حبيبك المأمول ونعيمك المعسول.

وجاء الأعور بالفتى الإنسي فأرصده في منعطفات عين شمس بحيث أمرته، فوقف يتشاغل بالصفير ويغازل الغاديات والرائحات.

أما هذا الفتى فهو ممَّن طمستُ على بصائرهم وأضللتُ ألبابهم، وطوَّحتُ بهم في الفساد إلى حيث لا يبلغ صوت الضمير ونداء الوجدان، فأصبح فاتر النفس، بارد القلب، لا يخف إلى غير المخازي، ولا يرتاح إلى حديثٍ في غير الشراب والنساء، ولا يرى إلا أن العالم حانٌ أو ماخور.

وذهبت مريم إلى أمها فاستأذنتها في الخروج أصيل ذلك اليوم، وكأن أمها خافت عليها مغبَّة ما بها من الكمد وأشفقت أن تتلاشى نفسها غمًّا من غدر خطيبها وانصرافه عنها إلى صاحبتها، فكرهت أن تجمع عليها بين ضيق الصدر وضيق الأَسْر؛ فأَذِنَتْ لها ونادت بالخصيِّ جوهر ليصحبها إلى حيث تشاء.

ولم يبقَ إلا ريم من النهار فتوردت الشمس وتزينت مريم بأحسن زينتها، وبرزت تتهادى في الطريق كأنها طاقة الزهر تترك بعدها عَبَقًا في حيثما صافحت الهواء.

وطفقتْ كلما نقلت قدمًا سمعت كلمة إطراء وغزل، وكلما أرسلتْ نظرة تعثرت في نظرات المُقَل، وهي ترى ذلك وتسمعه ولا تعيره نظرًا ولا توليه مسمعًا، حائرة الطرف في دنياها الجديدة مشرَّدة النفس بين الخجل والغرابة، حتى رمقت الفتى على قربٍ فرأت قوامًا قويمًا ومشيةً رشيقةً ووجهًا تشرق فيه بشاشة الصبا، وفمًا تبتسم فيه الملاحة وعينين ألَّاقتين كأنما تضاحكان الضياء، فأحسَّت كأن طائرًا نَضَّ جناحيه بين جوانحها، ومشت قبالته وهي تنجذب إلى ناحيته على غير عمدٍ، وعلمت أنها ستسمع من ذلك الفم الجميل ما قد سمعت من أولئك الثراثرة المتعشقين، فخفق قلبها وتوهج خَدَّاها، وإذا هي على قيد باعٍ منه تسمع صوتًا رخيمًا ولكنها لا تتبين ما يقول.

وحاولت أن تنحرف عنه فخانتها قدماها، ثم هَمَّتْ أن تنظر إليه فلم تطعها عيناها. ورأى الفتى ترددها ووجومها فأقبل عليها بكياسة الأمراء، وقال لها بلباقة الخطباء: ألستُ أنا أَوْلى بمصاحبة هذا المَلَك السماوي من ذلك العبد الأدلم؟! وأشار إلى الخصي جوهر — وكان على بُعْدٍ يحادث بعض أصحابه — فضحكت، وأدارت عينيها إليه ولكنها لم تلبث أن أدارتْهما عنه. وما كان فتاي ليجهل أن إعراض الخجل والدلال إنما هو عين الإقبال، وأن انثناء الروعة إنما هو هزيمة في هذا المجال، فأسرع إليها بجرأة أفادته إياها ممارسة هذه المواقف، وأمسك يدها وهي ترتجف بين يديه؛ فأذهلتها هذه المفاجأة

ولبثت هُنَيْهَةً يُخيَّل إليها أنها تتأهب للحركة ولا تتحرك وأنها تنبس بالكلام ولا تتكلم، كأن القلب الذي يوحي إليها الكلام والاعتزام قد طار منها في ملكوت الحب والهيام. فلم يبقَ منها إلا بصر شاخص كما ينظر الصبي في أثر العصفور أفلت من يده، وإلا بدن مستسلم كأنه بين راحتي الكرى.

وأدركهما جوهر وهما على هذه الحالة، فأرسل الفتى يدها وأفاقت هي إلى نفسها وهي تقول: وافضيحتاه! هذا جوهر آغا!

وسمعاه يحرنجم ويطمطم بما لا يفهمانه، وكأن كلماته من اللكنة والعجمة أصوات بغير حروف، ثم قال: «عيب يا بك! لا يليق بك أن تتهجم على الحرائر في قارعة الطريق، إن هذه ليست من أولئك اللائي تعرفهن ...»

فاستقبله الفتي باسمًا وقال — بما يُعهد في هؤلاء الفتيان من الظرف وتزويق الكلام: «سامحك الله يا أبي جوهر فقد بالغت في إساءة الظن بنا! ولسنا نحن كما ظننتَ من السُّوقة الهَمَل، ولكننا أبناء قومٍ كرام والحمد لله، وأنت تعلم أن الآنسة أبعد من أن تكون مظنَّة ريبة وهي ربيبتك وفتاتك! ووالله ما كنتُ لأتصدى لمحادثتها لولا أنها زميلة أختي في المدرسة، وأنها كانت تزورها في منزلنا فعرفتها وعرفتني هناك» وامتد بينهما الاستسماح والاعتذار هنيهة، ثم دس في يده دينارًا طال عهد الخصي بأمثاله فطار له لبه وقال: وإلى أين تذهبان الساعة؟

قال: نتمشى قليلًا حول هذه الحدائق ثم نعود، قال إذن أَدَعُ الآنسة في صيانتك ريثما أذهب إلى هذه القهوة، ثم ألحق بكما بعد ذلك، قال: مع السلامة.

وكذلك تصنع الدنانير والدراهم ... فإنها — بارك الله لي فيها — قد سكها الناس؛ ليجعلوها ثمنًا للعروض والحطام فما زلتُ بهم حتى تركتهم يشترون بها المحاسن والمواهب والأعراض والمذاهب، بل حتى لقد جعلتها في أيدي بعض الناس ثمنًا للفردوس وبراءة من النار.

فلما شعر الزنجي بالدينار في كفه رأيته كأنما قد انعكس بريقه على وجهه واعتدل ما التوى من خراطيمه، ثم تذكر موائد القمار وقد ودَّعها منذ سنين، فحنَّ إليها وذهب يُمتِّع نفسه باللعب والحديث، وهما حظ الخصيان من الدنيا ولذتهم فيها، بعد الطعام والشراب.

أما أنا فقد استدرجتُ الفتى والفتاة إلي حيث اختليا في بعض تلك الأماكن المنزوية عن الأنظار ... ثم مضيتُ في سبيلي.

عادت مريم وهي لا تطيق الصبر يومًا عن عين شمس، ولذَّت رناتُ الذهب والفضة للخصي فأصبح يشتاق تلك النغمة كل أصيل، وتتأخر آنسته عن الموعد قليلًا فيصعد إليها مستعجلًا، حتى خامر الشكُّ قلبَ الأم … فأبت عليها الخروج يومًا ومانعتها يومًا ثانيًا وأغلظت لها يومًا ثالثًا، فأطاعت على كُرْهٍ وانتظرت في اليوم الرابع على مضض، وألظَّ بها القلق في اليوم الخامس فبقيتْ تتلهف حيرةً وشوقًا، إلى أن حان موعد العصر فعزمت على موافاة عاشقها — سمحت أمها أم لم تسمح — وإنها لتتهيأ للخروج إذ قابلتها أمها فاستغربت منها هذه الجرأة وقالت: إلى أين يا مريم؟!

قالت: إلى عين شمس.

قالت: ألستِ تعلمين أنني أخاف عليكِ من هذه المدينة المشئومة؟

قالت: أما أنا فأعلم أنه لا خوف عليَّ منها …

قالت: حسنًا، ولكنني لا أريد أن تذهبي إليها.

قالت: ولكني أنا أريد ذلك … ألستُ حرة فيما أريد؟!

هذه هي الكلمة الجديدة التي تعلمَّتْها الفتاة: الحرية، لقد كانت تعرفها من قبل، ولكنها كلمة لم تكن لتؤدي في قاموس الطفولة معنى عقوق الأم الرءوم، وإيلام ذلك الحنان الطهور.

ألستُ حرة فيما أريد …؟ نعم أيتها الفتاة أنتِ حرة فيما تريدين …! وكل فتاةٍ حرة أيضًا … هكذا قال فلاسفة الحرية، أكثر الله من أمثالهم.

إن حرية النساء مبدأ صحيح قويم، بيد أن الهيئة الاجتماعية لا تخلو من منعرجاتٍ ومنعطفاتٍ لا تنطبق عليها المبادئ القومية إلا إذا التوت عندها بعض الالتواء، فهل من شأن الشريعة أن تحدَّ مواضع هذا الالتواء؟ لا، إن الشرائع العامة لا تضع إلا القواعد العامة، وإنما ذاك عمل البيئة والأسرة، وما دامت هذه الأزقة في الهيئة الاجتماعية فالمبادئ القومية لا تخترقها كلها، فلا زال الحكماء يرسمون هذه المبادئ لإصلاح الناس فنتخذها نحن ذريعة إلى إفسادهم في بعض الأحايين …